٧٠ - سورة المعارج

وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

علي محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦هـ - ١٩٤٧ م

سورة المعارج مكية

وهى أربع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١)

كان المشركون يستهزئون بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ويستخفون بما يوعدهم من العذاب وأنه آتيهم لا محالة ، فكانوا يقولون : وأين هذا العذاب ؟ أما آن وقت مجيئه ؟ بل قال أخبثهم طريقة فى تكذيب الوحى ، وهو "النضر بن الحرث" ما قصه الله علينا فى آية أخرى من كتابه : (إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ، وكان صلى الله عليه وسلم يقلق لتهكمهم هذا ، ويودّ أحيانا لو يُعَجَّل إليهم بشىء من العذاب ، فيرعووا أو يؤمنوا ، فافتتح الله تعالى هذه السورة حاكيا ما يقوله النضر أو غيره ممن يسأل سؤاله ، وحاضًّا نبيه على الصبر وحسن الانتظار .

و[السؤال] إذا كان بمعنى طلب الشىء واستدعائه يعدّى بالباء ، يقال "سأل بالعذاب أن ينزل به" ، كما يقال : سأل العذاب . والنضر بن الحرث دعا بالعذاب طالبا له مذ قال (ائتنا بعذاب أليم) ، فيكون المراد [بالسائل] فى الآية هو النضر ، ونكره تحقيرا له ، وتهاونا به .

أما إذا كان [السؤال] بمعنى الاستخبار عن الشىء اهتماما به ، وتفحصا عن حاله ، فيتعدّى بعن تارة ، وبالباء تارة أخرى ، فيقال "سألت عنه وعن حاله" ، كما يقال "سألت به وبحاله" ومنه قوله تعالى : (فاسأل به خبيرا) ، أى اسأل عن هذا الأمر الذى تهتم له خبيرا به ، ومنه قول عاتكة بنت عبد المطلب :

سائل بنا فى قومنا   وليكف من شر سماعه

أى سائل عنا وعما كان منا فى تلك الحرب حرب الفجار من النجدة والبسالة .

ويحتمل أن تكون (سأل) فى الآية بهذا المعنى وهو الاستخبار والتفحص ، ويكون المراد

لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾

[بالسائل] النضر أوغيره ممن كان يسأل سؤاله ، ويكون المعنى : سألك يامحمد سائل عن خبر عذابٍ طالما حدّثتهم به ، وحققت لهم أنه واقع بهم ، وقد انتهى السؤال عند قوله ﴿واقع﴾ فأجاب تعالى على سؤال هذا السائل أو على دعائه على نفسه بقوله ﴿للكافرين ليس له دافع من الله﴾ فهو استئناف واقع فى جواب سؤال السائل ، ولام (للكافرين) متعلقة بمحذوف ، والتقدير : هو أى ذلك العذاب المسئول عنه ، مهيأ ومرصد للكافرين ، فلا يستعجلوا هم ، ولا تضجر أنت يا محمد .

وجملة (ليس له دافع) خبر بعد خبر ، أى هو مخبوء لهم ، وليس له دافع يدفعه عنهم .

وقوله ﴿من الله﴾ متعلق ﴿ بدافع ﴾ على تضمينه معنى المنع والوقاية : أى إن العـذاب مهيأ لهم ، وليس له دافع ومانع وواقٍ من الله ، بل ستكون مشيئته تعالى فى تعذيبهم نافذة ألبتة .

ويحتمل أن يكون المراد بالسائل الذى سأل هو النبى صلى الله عليـه وسلم نفسه ؛ فقد قلنا إنه أحيـانا كان يتمنى لو ينزل بهؤلاء المكذبين عذاب يزجرهم عن طريق الدعوة الإسلامية ، فتنتشر وتُتلق بالقبول ، ويكون تنكيره صلى الله عليـه وسلم لتعظيمه أو لتعيّنـه ، فأجابه ربه على سؤاله قائلا : ما تطلبه وتستعجله مرصد ومهيأ للكافرين ، ثم ختم الآية بقوله مخاطبا له صلى الله عليه وسلم : (فاصبر صبرا جميلا) أى صبرا لا قلق معه ولا جزع ، وهكذا يكون الصبر الجميل .

وقد وصف الله نفسه بقوله : ﴿ذى المعارج﴾ ، وهو من العروج أى الصعود والارتقاء . واسم الآلة منه "معرج" و "معراج" وجمعها "معارج" و "معاريج" ، فالمعارج فى معناها كالمصاعد والمراقى والسلالم والدرج والدرجات ، فقوله تعالى "ذى المعارج" مرادف لقوله فى سورة المؤمن واصفا نفسه : (رفيع الدرجات) .

و"المعارج" و "الدرجات" إذا نسبت إلى ذاته تعالى كان المراد بهـا الرفعة والعلو اللائقين به تعالى . فذو المعارج وذو الدرجات نعت له سبحانه بعلو الذات وتنزهها عن النقصان ، وليس نعتا له بعلو الذات وارتفاعها فى المكان .

أتبعتـه فكرتى حتى إذا بلغت ... غاياتهـا بين تصويب وتصعيد
رأيت موضع برهان يلوح وما ... رأيت موضع تكييف وتحديد

تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾

و [الملائكة] من عالم الغيب الذى نؤمن به ، ولا نكلف أنفسنا عناءَ ما لم يكلفنا إياه الشرع من البحث عنه ، والتفكير فى حقائقه ، فإن هذا غير مستطاع لنا ما دمنا فى هذه الدار الدنيا .

أما [الروح] فيراد به جبريل نفسه ، وهو أحد هذه الملائكة ، ويكون فى ذكره معهم باسم له خاص زيادةُ تعظيم له .

ويقول بعضهم : إن [الروح] طبقة من الملائكة كطبقة الخاصة فى البشر بالنسبة إلى عامتهم ؛ فالروح على هذا جمع لا مفرد ، كما يقال أحيانا "المَلَكُ" ويراد به الملائكة .

أما معنى ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ أى إلى الله ، فهو عروجها وصعودها إلى حيث يفاض عليها من أنوار قدسه ، وتجليات أمره ونهيه — ما يتعلق بتدبير العالم ، وتدبير الكائنات ، وإعدادها فى الأطوار المختلفة لما خلقت له .

فضمير [إليه] يرجع إلى الله تعالى باعتبار مكان تجليه ، ومصادر أمره ونهيه ، لا باعتبار ذاته ، ومكان وجوده ، فإنه تعالى ليس له مكان ، كما مرت الإشارة إليه آنفا .

وقوله : ﴿فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ هذا اليوم هو مدة عمر الدنيا وليس التحديد مرادا كما يأتى بيانه . قال أبو مسلم الأصفهانى ولا يلزم منه أن يصير وقت القيامة معلوما ؛ لأنا لا ندرى كم مضى وكم بقى . والمراد باليوم فى هذه الآية مطلق الوقت ، وهو استعمال كثير الشيوع فى كلام العرب ، قال فى المصباح : "والعرب قد تطلق اليوم وتريد الوقت والحين نهارا كان أو ليلا ، فتقول ذخرتك لهذا اليوم أى لهذا الوقت الذى افتقرت فيه إليك" اهـ ؛ فالملائكة تعرج فى مدة الدنيا منذ أول نشأتها إلى حين اندثارها ، ومعنى أنها تعرج فى ذلك اليوم أنها تتردد بين الرب وبين هذه الأكوان بما يريده منها ، ويقضيه فيها .

ولا نقدر أن نفهم من هذا إلا أن الله الذى خلق هذا الكون ، أراد أن يدبره ويبلغه كماله بوسائط خلقها وسماها ملائكة [1] ، كما شاء لنا نحن فى حياتنا الدنيوية أن نتخذ وسائط فى قضاء

[1] كما سماها (المدبرات) فى سورة النازعات ، مذ قال تعالى : (فالمدبرات أمرا) .

أعمالنا ، وتوفير مصالحنا . أما أنه لماذا اتخذ سبحانه هذه الوسائط ؟ ولماذا لا يفعل ويدبر مباشرة ؟ فهذا ذهول من السائل عن نفسه ، واستغراق فى طينة حسه ، كدُعموص[1] فى حمأة يتطاول إلى درس أرقى مدنيات العالم ، وإلى فقه أسرارها ، ودقائق اختراعاتها .

أما وجه ارتباط خبر عروج الملائكة فى الدنيا بما قبله من سؤال السائل عن العذاب وأنه مهيأ للكافرين — فيفهم من إعمال المقارنة بين هذه الآية وبين آيتين أخريين وردتا بهذا المعنى ، وهما قوله تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ، وقوله : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) .

فالآيات الثلاث بعضها يفسر بعضا ، وهى متواردة على إفادة معنى أو معنيين تقريبا ، ومحصل ذلك أن الله تعالى أجاب المكذبين بأن ذلك العذاب الذى يستعجلونه واقع بهم لامحالة ، وأنه لا أحد يقدر على دفعه عنهم ، ومنع ما يريده تعالى بهم ، ثم نبههم بقوله (تعرج الملائكة الخ) إلى أن ذلك العذاب إنما يرونه بعيدا لطول مدة الدنيا ، فهى فى نظرهم ، وباعتبار مقاييس أزمانهم طويلة جدا كألف سنة أو خمسين ألف سنة ، مع أنها ليست عنده تعالى وبالنسبة إلى الأحقاب التى تربط الأبد بالأزل سوى يوم ، أى زمن قصير تعرج فيه الملائكة مترددة بين الخالق وبين الخلائق ، تدبر أمرهم ، وتمدهم من العناية الإلهية بما فيه صلاحهم ، فما لهؤلاء المكذبين يستعجلون العذاب ؟ ويستبطئون الحساب ؟ وهو منهم على قاب ؟ ولما أراد أن يصف سنى عمر الدنيا بالكثرة عبر عنها فى آية بألف سنة ، وفى أخرى بخمسين ألف سنة ، ولم يرد سبحانه التحديد والتعيين ، وإنما أراد المبالغة فى وصف المدة بالطول بالنسبة إلى البشر . وقد جرى فى ذلك على ما اعتادوه فى أساليب كلامهم فى مثل هذا المقام ؛ فهم إذا أرادوا تكثير مرات فعل من الأفعال قالوا : جئت أو فعلت سبعين مرة ، أما إذا أرادوا الإخبار عن زمن بأنه طويل جدا ، فمرة يقولون : لو عاش فلان ألف سنة ، ومرة يقولون : لو عاش خمسين ألف سنة ، وفى كلا التعبيرين لا يريدون

---

(١) الدعموص دويبة أو دودة سوداء تكون فى المياه الراكدة وتندس فى وحلها .

إلا المبالغة بطول المدة . وقد ذكر القرآن فى حادثة واحدة وهى وقعة بدر — أن الله أمدّ المؤمنين بألف[١] من الملائكة وبثلاثة آلاف وبخمسة آلاف ، ولا مفهوم فيه للعدد كما قلنا . وذكر بعض علماء الحديث بمناسبة قوله صلى الله عليه وسلم " إن القرآن أنزل على سبعة أحرف " — أن العرب يذكرون السبعة فى الآحاد ، والسبعين فى العشرات ، والسبعمائة فى المئات ، ولا يريدون بها تعيين العدد ، وإنما يريدون إفادة الكثرة . وحمل بعضهم (اليوم) فى آيتنا التى نفسرها — على يوم القيامة ، وقال إن المراد بالآية تهويل أمر ذلك اليوم ، وتعظيم شأنه فى نفوس المشركين المكذبين الذين يستعجلون العذاب ؛ فهو تعالى يقول : إن ذلك العذاب يقع فى يوم يطول عليكم أيها المكذبون إلى حد أن تحسبوه خمسين ألف سنة ، وما هو بالنسبة إلى اللانهاية إلا كيوم واحد .

وسواء أردنا باليوم يوم الدنيا ، أو يوم الآخرة ، فليس المراد بالخمسين ألفا تعيين عدد السنين ، وإنما المراد وصف ذلك اليوم بالطول .

وكان السلف الصالح يكرهون التقصى فى البحث ، والإلحاف فى السؤال عن مثل هذا ، وكيف يكون اليوم تارة ألف سنة ؟ وتارة خمسين ألف سنة ؟ فقد سأل رجل ابن عباس رضى الله عنه عن معنى قوله تعالى : (فى يوم كان مقداره ألف سنة) ، فلم يجبه ابن عباس عن سؤاله ، وإنما وجه إليه سؤالا بمعنى سؤاله قائلا : " ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ " فقال له الرجل : " إنما سألتك لتخبرنى " ، فأجابه ابن عباس : " هى أيام سماها الله ، وهو أعلم بها كيف تكون ، وأكره أن أقول فيها مالا علم لى به " .

هذا ، وفى الآية وجوه أخرى تتعلق بمعناها وإعرابها اقتصرنا منها على ما رأيناه أحجى بالقبول ، وأحظى لدى العقول .

---

(١) ففى الأنفال (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف) وفى آل عمران (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف) وفيها أيضا (يمددكم ربكم بخمسة آلاف) .

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾
وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

قوله ﴿إنهم يرونه الخ﴾ أى إن المشركين المستبطئين يوم الدين يرون العذاب الذى أُوعدوا به فيه بعيدا ، لأنهم كانوا لا يصدقون به . ويقول سبحانه إنه هو جلت عظمته يرى ذلك العذاب الواقع فى يوم القيامة الذى تكون فيه السماء كالمهل — قريبا ، أى واقعا محقق الحصول . وعبر عنه بالقرب مشاكلة ومقابلة لقوله ﴿ بعيدا ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ونراه قريبا يوم تكون الخ﴾ انتقال وخلوص من الرد على المكذبين بيوم العذاب إلى وصف ذلك اليوم الذى فيه ﴿ تكون السماء كالمهل ﴾ .

[والمهل] مائع الزيت ، ومائع الفِلِزّ المذاب : كالنحاس والحديد والفضة ، مع ملاحظة أن يكون للمائعين المذكورين اللون الخاص الذى يعهده فيهما كل من رأى معدنا يصهر ويذاب ، أو رأى دُرْدِيّ الزيت وعكره يصب ويكال . هذا اللون الأكدر الضارب إلى الحمرة أو الزرقة أو الخضرة هو لون السماء يوم تقوم القيامة ويأذن الله بخراب هذا العالم .

﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ : [العهن] الصوف المصبوغ ألوانا من أصفر وأحمر وأخضر وقد وصف هذا الصوف فى سورة القارعة بأنه " منفوش " . والجبال إذا بُسّت يوم القيامة ، وتفتتت أجزاؤها — وهى بالطبع مركبة من أتربة ومعادن مختلفة اللون — كانت ذراتها المنبثة فى الفضاء منفوشة غير متلبدة ، وذات ألوان مختلفة : كألوان الصوف المصبوغ تهاويل ، لا ذات لون واحد .

هذه هى حال السماء والأرض فى ذلك اليوم . أما حال الخلائق فهى كما قال تعالى : ﴿ولا يسأل حميم حميما﴾. حميم المرء قريبه وصديقه الذى يهتم بأمره ؛ فمن شدة ما ينزل بهم جميعا من الهول والفزع يتناكرون ويتدافعون يمينا وشمالا ، مشتغلا كل منهم عن حميمه بنفسه ، وتلمس طريق الخلاص لها ، وينحصر همه فى ذلك بحيث لا يعود يسأل حميمه : ما شأنك ؟ وكيف حالك ؟ وهل تطلب منى معونة ؟ وهذا كما قال تعالى فى سورة عبس : (يوم يفرّ المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) .

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ
وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾

يقول قائل: إنّ الحميم قد لا يكون أبصر حميمه فى ذلك الوقت ليسأله ، فقال تعالى ﴿يبصّرونهم﴾ وهو مضارع مجهول من التبصير ، وضميره المرفوع — وهو نائب الفاعل — يرجع إلى (حميم) المرفوع ، وضميره المنصوب يرجع إلى (حميما) المنصوب . وإنما أتى بالضميرين بلفظ الجمع لما فى المرجعين من العموم وإن كانا مفردين .

يقول : إنّ الأقارب والأصدقاء لا يسأل بعضهم بعضا عن حاله فى ذلك اليوم مع كونهم قد جعل الله بعضَهم يُبصِر بعضا ، ويعرفه أنه هو ، ولم تكن ثمة حواجز تحول دون رؤية أحدهم والآخر ، وإنما يمنعهم عن المساءلة تشاغل كلٍّ بخويّصة نفسه .

قوله ﴿يودّ المجرم الخ﴾ هذا ترقٍّ فى وصف هول ذلك اليوم ، يقول : لا يقتصر الأمر فى ذلك اليوم على وقوع التناكر والتدابر بين الأحماء والأهل والأصدقاء ، بل الأمر أفظع من ذلك ، إذ (يودّ المجرم) — وهو مرتكب جريمة الجحود والتكذيب — ﴿لو يفتدى من عذاب يومئذٍ ببنيه الخ﴾ ، أى يتمنى لو تقبل منه فدية ، فيقدّم فداءً عن نفسه أقربَ الناس إليه ، وألصقهم به ، وأعزهم عليه ، من ابنٍ وزوج وأخ وأبناءِ عشيرةٍ كان يأوى إليها ، ويتّكل فى نوائبه عليها ، بل يتمنى لو تقبل منه فدية فيفتدى بـ﴿من فى الأرض جميعا﴾ من البشر وغير البشر ، ﴿ثم ينجيه﴾ ذلك الفداء ، وينقذه من الكرب ، وفادح الخطب . و[صاحبة] الرجل امرأته ، وقد تقول المرأة عن زوجها إنه صاحبها ، لكنه قليل ، قالت ليلى الأخيلية :

لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وخليل

و[فصيلة] الرجل عشيرته ورهطه الأدنون ، الذين انفصل عنهم بالوِلاد ، وبقى يأوِى إليهم بالنسب والنصرة فى الأيام الشداد .

ولما كان قبول الفداء منه يومئذٍ بعيدَ الحصول ، ونجاتُه من العذاب بهذا الطريق غير مأمول — عطف فعل (يُنجيه) على (يفتدى) (بثم) التى تستعمل فى التراخى والبعد الزمانى أو الاعتبارى كما هنا ، كأنه يقول: يودّ أن يفدى نفسه بهؤلاء المذكورين وهيهات أن ينجيه ذلك .

كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾

﴿كلا﴾ كلمة زجرٍ وتعنيف ، يصدع بها المخاطب صرفا له عن اعتقادٍ أو رأيٍ أو عمل غلا فى التمسك به ، والتعصب له ، فيكون معناها ليس الأمر كما زعمت أو عملت ياهذا ، وإنما هو كيت وكيت ، والمكذبون بيوم الدين المستبعدون لوقوع العذاب فيه غَلَوْا فى عنادهم وتكذيبهم بعد أن وضح الأمر لهم ، وقامت الحجة عليهم ، حتى كأنهم من فرط العناد ، وقيام الحجة ، يعللون أنفسهم بالأمانى ، ويتمسكون بأوهى الأسباب ، من مثل استنقاذ أنفسهم بفدية ما ، فكذبهم الوحى فى ظنهم هذا ، ثم زجرهم عنه ، وردعهم عن التمادى فيه قائلا : ﴿كلا إنها لظى الخ﴾ ، أى دَعُوا أيها المجرمون المكذبون هذه التعلات ، والأمانى الكاذبات ، فإنّ الأمر ليس كما تزعمون من أنه تعالى لا يخلق دارا يعذّب فيها الفجار ، أو أنه إذا خلقها فقد يتلمسون فيها طريقا للخلاص بفداءٍ ونحوه (إنها لظى) ، إنّ تلك الدار ، أو إنّ تلك القصة الهائلة التى تمارون فيها ، هى لظى كما أخبركم بها نبيكم صلى الله عليه وسلم ، لا ريب فيها ، ولا منجًى منها .

و[اللظى] اسم للنار ذات اللهب ، و[الشَّوَى] كل ما لم يكن مقتلا من الأعضاء : كاليدين والرجلين والأطراف ؛ يقال : "رمى فلان فلانا فأشواه" ، أى أصاب أطرافه ، ولم يصب منه مقتلا ، ويقال فى ضدّه "رماه فأصماه" إذا أصاب مقتلا له فأرداه ، والمعنى أن تلك النار من فرط تلظيها تنزع أطراف المعذَّب وجوارحه نزعا شديدا مبالغا فيه ، أو نزعا متكررا يحصل مرة بعد مرة ، وكأنه خص الأطراف بالذكر دون الأعضاء الرئيسية التى إذا نزعت مات صاحبها — للإشارة إلى أنّ تعذيبهم بتلك النار المتلظية لا يسلبهم حياتهم ، فهم فى النار دائما أحياء يعذبون ويكون حفظ الحياة ودوامها إذ ذاك بمحض قدرة الله تعالى .

وقال بعضهم إنّ [الشَّوَى] هنا جمع شواةٍ وهى جلدة الرأس ، وتسمى "فروة الرأس" أيضا وإنّ النار يوم القيامة تنزع من المكذبين الجاحدين جلدات رءوسهم المرّة بعد المرّة ، كلما نُزِعتْ أعيدت زيادة فى التنكيل والتعذيب .

تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾

وقوله ﴿تدعو من أدبر وتولّى﴾ أى تنادى وتهتف بالذى أدبر وأعرض عن الإيمـان . وقال (تدعو) لأن تهيؤ جهنم ، وتبرجها للمعرضين عن الإيمان ،وتفتّح أبوابها لدخولهم – كأنه فى المعنى هتاف بهم ، ودعاء لهم ، وهو ما يسمونه "لسان الحال" كما أن الدعاء بالقول "لسان المقال" . وهذا الضرب من التعبير كثير الشيوع فى كلام العرب وأشعارهم ، لا سيما إذا أرادوا الحكاية عن شيء لا يَعْقِل ووصف أحواله ، ومنه قوله :

شكا إلىّ جملى طول السُّرى يا جملى ليس إلىّ المشتكى
صبرا جميلا فكلانا مبتلى

والجمل لا يمكن أن يشكو بلسان مقاله ، وإنما يشكو بلسان حاله ، فإن آثار الأين والكلال والحفاء البادية عليه ، كأنها ألسنة تنطق بالشكوى إلى صاحبه .

وقال أبو النجم الرجاز المشهور يصف روضة : "تقول للرائد أعشبْتَ انزل" .

أى أنها لاستجماعها ما يلزم للقوم المسافرين من مرعى وماء وظل إذا وصل إليهـا رائدهم يبتغى لهم مكانا للنزول استوقفته تلك الروضة بحيث لا يمكنه تجاوزها دون النزول فيها بقومه ، فهى كأنها تقول له : "أعْشَبْتَ" أى أصبت عشبا ، "فانزل" على الرحب والسعة .

ومثله قول الراجز الآخر :

امتلأ الحوض وقال قَطنى مهلا رويدا قد ملأتُ بطنى

فهذا ما يسمونه لسان الحال . وله شواهد كثيرة جدا فى القرآن والحديث ، وقد غفل عنه الكثيرون فحملوه على الحقيقة ، وجعلوه من الخطاب بلسان المقال ، ولا حجة لهم إلا أن الله تعالى قادر على كل شيء ، ومن ذا الذى ينكر قدرته تعالى ، ولكننا نرى أن حمل هذه الآية ونظائرها على التمثيل كما ذكرنا عن أهل اللسان فى الحكاية عما لا يعقل – أمثل بل أبلغ من حملها على الحقيقة ولا داعى عقلى أو شرعى للحمل عليها . على أن مفسرا لغويا [1] جعل (تدعو) هنا على حدّ قولهم "دعا اللهُ فلانا بما يكره" أى أنزل به ما يكره ؛ فمعنى دعوة جهنم إياهم أنها تفعل بهم الأفاعيل .

قلنا إن جهنم فى ذلك اليوم تهتف بأبنائها أن يسرعوا إليهـا ، ومن هم أبناؤها ؟ (من أدبر وتولى) أى أعرض عن الإيمان بالله ، وقبول ما أتى به محمد عليه الصلاة والسلام من الهدى ودين

(١) ص ١٣٣ ج ٢ : المخصص .

الحق ، وكذلك هي تدعو إليها أيضا من تكالب على الدنيا ، ﴿وجمع﴾ من حطامها ﴿فأوعى﴾ ، أي خبأه وكنزه في الخزائن والصناديق والأوعية ، يقال "أوعى الشيءَ" إذا حفظه ، وأوعى الزاد والمتاع إذا جعله في الوعاء . وأوعى أيضا جمع وشحّ ، ومنه الحديث "لا تُوعى فيوعِيَ الله عليك[1]".

وفي الآية وعيد شديد لمن يبخل بالمال ، ويحرص على جمعه ، فلا ينفقه في سبيل الخير ، ولا يخرج حق الله فيه . وقد جعل الكتاب كانز المال ، الشحيح به ، الذي يمنعه مستحقه — بمنزلة المعرض عن الحق ، المكذب للدعوة ، الجاحد للرسالة ، كما جعلهما في قرن واحد أيضا مذ قال تعالى : (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين) . وقد مر الكلام على هذه الآية مستوفى في سورة الحاقة .

وإن الباحث المفكر ليقف موقف الحيرة في معرفة أية الخصلتين أشدّ محقاً للأمم ، وإجهازا على حياتها ؟ آلكفر بالله ؟ أم الشحّ ؟أعني ترك بذل المال فيما يجب فيه البذل . ويظهر من آيات الكتاب المتكررة — ولا سيما في الآيات الآتية قريبا — أن الخصلتين سواء في ذلك . أعاذنا الله من المهالك .

وما وصفه الله من هول الساعة ، ولون السماء ، وحالة الجبال ، وتقاطع الأحمّاء المحشورين في عَرَصَات القيامة ، ثم ما يكون للمكذبين في جهنم من العذاب والنَّكال ، بالسلاسل والأغلال ، وما يكون للمؤمنين في الجنة من الجزاء والثواب ، بالطعام والشراب ، وصنوف اللبوس والثياب ، كل ذلك نعتقده من دون زيادة أو نقص ، ونكل أمر حقيقته وكنهه إلى الله تعالى ، كما كان يفعل سلفنا الصالح في فهم ذلك ، وفي تربية أولادهم عليه .

روى الأمام أحمد في مسنده أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه سمع ابناً له يدعو ويقول: "اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحو ذلك ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها" فقال له أبوه : "لقد سألت الله خيرا كثيرا يابني ، وتعوذت به من شر كثير ، لكنك تعدّيت الحد الذي نهى الله عن تعدّيه في قوله تعالى : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية . إنه لايحب المعتدين) أي المتجاوزين في الدعاء . ثم علمه الأدب في ذلك فقال له : حسبك أن تقول : "اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل . وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل".

(1) أي لا تجمعي وتشحي بالنفقة فيجازيك الله بتضييق رزقك . المصحح .

إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾

وروى أبو داود فى سننه عن عبد الله بن مغفّل أنه سمع ابنه يقول : " اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها "، فقال له : " يا بنى، سل الله الجنة، وتعوّذ به من النار ؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء " والاعتداء فى الطهور المبالغة فى الوضوء والغسل والنظافة بما يؤدى إلى الوسوسة .

فإذا كان السلف رضوان الله عليهم لم يرضوا أن يعين الداعى ويخصص ويغلو فى دعائه ــ وليس الدعاء سوى طلب وتمنٍّ من الله ــ فكيف يرضون أن يضع الرواة فى أوصاف الجنة والنار وأطوارهما وأحوال المنعّمين والمعذّبين فيها ــ بزعم الترغيب والترهيب ــ ما لا أصل له فى الدين ، بل ربما مهد الطريق أمام تشكيك المشككين ، وزعزعة عقائد المؤمنين .

ولما ختم الآيات السابقة بوصف لظى التى يستبطئها المكذبون ، وذكر أنها تدعو إليها من كان منهم معرضا عن الحق ، مكبا على جمع المال وكنزه ــ تطرّق من ذلك إلى ذكر خُلُقٍ فُطِر البشر عليه ، وكان سببا فى معظم الشقاء الذى يصيبهم ، ثم استثنى منهم أولئك الذين قدروا على تطهير نفوسهم من ذلك الخُلُق بممارسة الفضائل الدينية .

أما الخُلُق الذى فُطر عليه الإنسان فهو ما عبر عنه بقوله تعالى : ﴿إن الإنسان خلق هلوعا﴾ وأراد بالإنسان كل أفراده لا واحدا منه بدليل استثناء (المصلين) منه، والاستثناء معيار العموم .

أمّا [الهلوع] فقد فسره الكتاب نفسه بقوله : ﴿إذا مسه الشر الخ﴾ ، والمعنى أن الله خلق الإنسان وغرس فى نفسه منذ أول نشأته هذا الخُلُق الذى هو [الهلع] ؛ فهو ﴿إذا مسه الشر﴾ ونزل به المكروه من فقرٍ أو مرضٍ أو خوفٍ كان ﴿جزوعا﴾، فيستولى عليه اليأس والقنوط ، ويحسب أن ما نزل به غير مقلع عنه ؛ فالفقر لا يعقبه غنى ، والمرض لا تخلفه صحة ، والخوف لا ينسخه أمن. وكثيرا ما قاده يأسه هذا، إلى ارتكاب معصية أو منكر وقتل نفسه أحيانا ﴿وإذا مسه الخير﴾ وتيسرت له أسباب الرغد ، وغضارة العيش ، فأصبح غنيا موسّعا عليه فى الرزق ، صحيح الجسم معافى ، موفور الجانب ، نافذ الكلمة ، ذا جاه ومنصب ــ كان إذ ذاك ﴿منوعا﴾ يمنع الناس رفده ومعونته والانتفاع بجاهه ؛ فهو من غلبة هـذا الخُلُق عليه يحسب أنّ ما أوتيه من الخير والرزق والنعمة لم يؤته إلا لكونه مستحقا له بذاته لا بفضل الله ، فيطغى على الناس ، ويكفر النعمة ، فلا يشكر لله عليها بوضعها فى مواضعها ، بل قد يستخف بها أحيانا فيحسب أنه مستحق

إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ
حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾

لأكثر منها . وربما تدرج من هنا إلى إيذاء خلطائه والبغى عليهم ، وغمط حقوقهم ، وهذا هو البطر ، وصاحبه هو [المنوع] الذى حكى الله عنه فى هذه الآية .

خلق الله الإنسان منذ أول نشأته مفطورا على [الهلع] ، لكنه تعالى لطف به ، فخلق فى نفسه فى جانب هذا الهلع مواهب سامية : كالعقل ، وغريزة التدين ، وكآيات الوحى التى كان يتلقاها الأنبياء فيعالجون بها ضعف الإنسان و يلطفون من سورة هلعه ، ومن ذلك الصلاة التى هى عماد التدين ، وأكبر مظهر من مظاهر عاطفته . وهذا معنى قوله ﴿إلا المصلين﴾ ، استثناهم من أفراد الإنسان الملوثين بالهلع ؛ فالمصلون بما واظبوا على صلواتهم ، وتعرضوا لنفحات ربهم وهم يناجونه فيها — استفادوا فرط ثقة به ، ورضى بقضائه ، وعرفان أن كل خير وشر بتقديره ، فلا يجزعون إذا مسهم الشر ، ولا يمنعون إذا مسهم الخير . ومثلهم فى ذلك المزكون ﴿الذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم﴾ .

و[السائل] الفقير الذى يتكفف فيُعْطَى ، [والمحروم] الذى يتعفّف فيُحْرم ، أو هو الذى أصيب بآفة سماوية اجتاحت ماله ، فوجم لذلك وافتقر ، وأنف أن يسأل الناس ، أو هو الذى كلما طلب الدنيا أدبرت عنه ، ويسمى المحدودَ "بالحاء المهملة" والمحارَف أيضا . وضده المجدود "بالجيم" وهو المبارك الميمون النقيبة . والاسم من المحارف " الحُرْفة " بضم الحاء . ومنه قول الشاعر :

ما فيه لوٌ ولا ليت تنقّصه　　وإنما أدركته حُرفة الأدب

أى حرمان الأدب وشؤمه .

فالموسرون الذين يجعلون فى أموالهم قدرا معينا من المال ، ويرون ذلك حقًّا واجب الأداء للفقراء ، سواء أطلب الفقراء منهم ذلك أم تعففوا فلم يطلبوا — هؤلاء المذكورون جديرون — بما مارسوا من الصلاة ، وما أنفقوا من الزكاة — ألّا يعدّوا من أفراد الإنسان الهلوع الذى وصفه الوحى ، وشّهر به ، ومَقَتَ فعلَه .

وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾
إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾
إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾

قوله ﴿والّذين يصدّقون الخ﴾ يعنى بهم الذين آمنوا بالغيب وبيوم الحساب ، وصدّقوا بجميع ما أتى به الوحى على لسان الرسل من أمر الثواب والعقاب ، فأصبحوا — وقد مازج هذا التصديق قلوبهم — خائفين أن يحاسَبوا ، مشفقين أن يُعَذَّبوا ، ولا سيما أنهم يعلمون أن العذاب غيرُ مأمون ، والخلاصَ غيرُ مضمون ، فيزيدهم ذلك إقبالا على الله وعلى ممارسة الأعمال الصالحة ، كما أن ثقتهم بوعد الله بالثواب تثلج صدورهم ، وتشحذ عزائمهم ، وبذلك يبقون مترجّحين بين الرجاء والخوف ، لا غَلَبَةَ رجاءٍ تحملهم على الكسل ، وتسويف العمل ، ولا شدّةَ يأسٍ تُسلمهم إلى الخطل ووسوسة الخبل .

إن مثل هؤلاء المصدّقين المشفقين قلما تزدهيهم الدنيا ، أو يبطرهم نعيمها ، أو يجزعون لما فاتهم من حطامها ، فسواء عليهم أصحُّوا فى الدنيا أم سقموا ، خسروا فى حظوظها أم غنموا ؛ إذ أن لديهم من الفكر فى جلال ربهم ، وذكر معادهم — ما يشغلهم عن الجزع إذا مسّهم الشر ويَرْبأ بهم عن المنع إذا مسهم الخير ؛ فشر الدنيا وخيرها إلى فناء وانصرام ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

ثم ذكر الفريق الخامس من الموفّقين الذين قدروا أن يحفظوا نفوسهم من وصمة [الهَلَع] الممقوت ، ويحفظوا موازنتها ، ويضبطوا ميولها ؛ فلا تستسلم للجزع والوسوسة ؛ ولا تسترسل فى المنع والغطرسة ، وأولئك هم الأعفّاء الذين قال الكتاب عنهم إنهم (لفروجهم حافظون)[1] ،

---

(١) جعل المؤلف " الحافظين لفروجهم " فريقا خامسا ، وهذا يدل على أنه يعد المحافظين على الصلاة فريقا ، والمؤدّين للزكاة فريقا آخر ، وهكذا ، وسيصرح بهذا قريبا . ولعل الذى ساقه إليه تكرار اسم الموصول "الذين" ، وليس بسديد ، بل المراد بالمصلين المؤمنون ، كنى عنهم بالصلاة التى هى عماد الدين ، ثم ذكر أوصافهم المختلفة التى لا يغنى بعضها عن بعض فى تحقيق الإيمان ، بل تتآزر كلها على إصلاح المؤمن فى نواحيه المختلفة وكل وصف منها له أثر كبير فى مقاومة الهلع . وإنما تكرر الموصول لبيان مزيد اختصاص المؤمنين بما تضمنته الصلات من صفات ، كما تقول حينما تريد أن تصف إنسانا بعدة صفات ، وتدل على مزيد ارتباطه بها — : محمد هو الذى يقوم بشعائر دينه ، والذى يكرم ضيوفه ، والذى يخلص فى خدمة وطنه ، وهكذا ، كأنك تريد أن هذه الصفات لا تكون إلا له . اه : المصحح .

فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾

فلا يرتكبون المحارم ، ولا يتلوثون بالمآثم ، ولا يعرفون غير أزواجهم ، أو مملوكات أيمانهم ، يعني الرقيقات . فالذين يقتصرون على ما أحله الله لهم مواتاةً لناموس الفطرة الإلهية ، وتكثيرا لسواد الأمة بوفرة النسل والذرية — يكونون ﴿غير ملومين﴾، بل غير مبخوسين حقهم من الأجر في هذه النية . أما الذين يبتغون من الشهوات ، والفواحش والمنكرات — ﴿وراء ذلك﴾، أي وراء ما أحله الله ﴿فأولئك هم العادون﴾ ، أي الذين تعدوا حدود الله ، وخالفوا الناموس الآمر بالاعتدال في مطامح النفس ،وتكاليف الحياة .

والرِّقُّ كان فاشيا قبل البعثة المحمدية في العرب واليونان والرومان على أبشع صورة وأنكرها . ثم جاء الإسلام فضيَّق دائرته ، وحصره في أسرى الحرب ، وأمر أتباعه أن يعتبروا الرقيق كواحد من أسرتهم ، فقال : ”إخوانكم خَوَلكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون“ ، فكان الرقيق في الإسلام رقيقا ظاهرا ، أخا باطنا . والاسترقاق على هذه الصورة وسيلة من وسائل نشر الإسلام ، وتعميم تعاليمه ، وتكثير سواد أهله ؛ فهو يشبه ما يسمُّونه اليوم بلسان السياسة : التجنُّس بالجنسية والالتحاق بالتابعية .

ومع هذا فإن الدين الإسلامي كان يعتبر الرقّ والحرب الموصلة إليه كليهما ضرورة ينبغي تجنبها ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ؛ ومن ثم كان ينهى عن تمني لقاء العدو أي عن تمني الحرب ، وذلك بأن تفض مشاكل الخلاف بين الأمم من دونها ، كما يحض على عتق الرقيق وهو أسير الحرب ويرغّب في إعطائه حريته ، ويتوسل إلى عتق العبد بمختلف الوسائل ، ومتعدد الوسائط كما إذا حَلَف سيِّده وحنث ، فإن من كفارات يمينه أن يعتق رقبته .

أما اليوم وقد أخذت أصول الحرب بين أمم العالم شكلا جديدا ، وكان من تلك الأصول إبطال أمر الاسترقاق — فلم يكن الدين الإسلامي ليأبى ذلك لموافقته أصل الأصول عنده ، أعني الرحمة والرفق بالإنسان ، والمبادرة إلى عتق الرقيق ، على أن الاسترقاق اليوم أصبح من المتعذر إيقاعه حسب الشروط التي اشترطها الإسلام ، والأحوال التي قررها الشارع ، فكان على البشر إهماله وترك العمل بشريعته .

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

تنقسم أصول الشرائع التى يُكَلَّفُها المرء فى دنياه ثلاثة أقسام كبرى :

(القسم الأول) ما كان بين العبد وربه من عقائد وعبادات محضة .

(القسم الثانى) ما كان بين العبد وإخوانه مما التزموه بينهم من العهود والمعاملات المحضة.

(القسم الثالث) ما كان متوسطا بين القسمين المذكورين وله شبه بهما كليهما .

وقد انطوى تحت القسم الأول أربع طوائف من الذين وفقهم الله إلى تطهير نفوسهم من خُلُق [الهَلَع] المذموم[1] وهم :

(١) ﴿ الذين يصدّقون بيوم الدين ﴾ أى يوم الحساب .

لكن هؤلاء قد لا يحملهم تصديقهم على الإشفاق والخوف من العذاب ، فيسترسلون فى المعاصى والشرور ، فخص المشفقين من المصدّقين وجعلهم فريقا ثانيا فقال :

(٢) ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ .

ثم ذكر أن أعظم مظهر من مظاهر الإشفاق ، وأكبر معوان على جعل ذلك الإشفاق جالبا لرضاء الله ، واقيا من سخطه وعذابه — هو الصلاة والالتجاء إلى الله ، فخص المصلين من المشفقين ، وجعلهم فريقا ثالثا فقال :

(٣) ﴿ إلا المصلين الذين على صلاتهم دائمون ﴾ ومعنى دائمون يأتون بها فى أوقاتها ؛ فلا تفوتهم منها فائتة .

لكن هؤلاء قد لا يحسنون أداء الصلاة ؛ فلا تقع بحيث تؤثر فى قلوبهم الأثر النافع ، ولا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فخص من المصلين المواظبين على الصلاة فى أوقاتها ، المحافظين على سننها وآدابها وشرائطها ، وجعلهم قسما رابعا ، لكنه ذكره فى آخر الأقسام الثمانية اهتماما بالصلاة ، وإعادةَ تذكير بها ؛ لكونها عُرضةً للتفريط فيها والتكاسل عنها فقال :

(٤) ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ أى يلتزمون شرائطها وآدابها ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها ، وإلا كانت حركاتٍ ساذجةً ، لا حاجة لله فيها ، ولا فائدة للعبد منها .

[1] وهكذا يسترسل المؤلف فى عد الصفات طوائف من الناس ، والصواب — بناء على ما قدمنا — أن يقول هنا : وقد انطوى تحت هذا القسم أربع من صفات الإيمان المطهرة للنفوس ... الخ . المصحح .

أمّا القسم الثـانى وهو المعاملات فَذَكَرَ الوحىُ الذين يراعونها ، ويؤدّون ما التزموه منها من الموفقين ، وهم فريقان فقال :

(٥) ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ فـ[الأمانات] هى الحقوق المتبادلة بين الناس. و [العهدُ] يريد به جملة العقود التى تَتَوَثَّق بينهم ،وتكون أساسا للحقوق والأمانات ، وينطوى تحت الأمانات والعقود كل أنواع المعاملات ومن جملتها [الشهادة] لدى الحاكم ، بل إن الشهادة أكبر ضمانةٍ لسلامة تلك الأمانات وحفظها ،فإذا وقع التساهل والتفريط فيها بكتمانها أو نسيانها ضاعت الحقوق ، وعقمت العقود ،وخزيت الأمانات[1] ،وفسدت المعاملات . ومن ثم خَصّ الكتاب الشهادة من بين الأمانات والعهود بالذكر ، وجعلها قسما برأسها فقال :

(٦) ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ أى مؤدّون لها على وجهها بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحهم .

أما القسم الثـالث من الأعمال الشرعية المتوسطة بين العبادات والمعاملات فهى الزكاة والصدقة وكل صلة مالية أخذ المرء على عاتقه مواساة إخوانه الفقراء بها ، سواء أكانت مما أوجبه الله عليه ، أم مما التزمه هو التزاما . وهذا الفريق ذكره الكتاب بقوله :

(٧) ﴿والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾ وقد مر بيانه .

ومن جملة هذا القسم أمر النكاح والاقتصار فيه على ما حلله الشرع ، ففى هذا الاقتصـار والتعفّف طاعةٌ لله ، وصيانة للأعراض ، وحفظ للأنساب ، وبهـذا الاعتبار أشبهت عقودُ النكاح عهودَ الشرف والكرامة المتبادلة بين أفراد الأمة ؛ فإن فى انتهاك أعراضها إضاعة لحقوقها وامتهانا لكرامتها ، وقد أشار الكتاب إلى هؤلاء المتعفّفين الموفقين بقوله :

(٨) ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم الخ﴾ ومر تفسير ذلك أيضا فى محله .

وبعد أن أتى الكتاب على ذكر هذه الأقسام الثلاثة ممـا فيه دواء لداء الهلع المقوت ، وذكر ما انطوى تحتها من الأقسام قال :

﴿أولئك فى جنات مكرمون﴾ (أولئك) إشارة إلى ما ذكر من الطوائف الثمـانية[2] ، فهو يقول إن لهم من الجزاء يوم القيامة على أعمالهم وحسن مساعيهم رضاء الله ، والحلول فى دار الكرامة .

(١) من خزى الرجل كرضى خزيا اذا هان أو هلك .

(٢) الإشارة — بناء على ما قدمنا — إلى المؤمنين الذين اجتمعت فيهم تلك الصفات . المصحح .

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾

[الذين كفروا] هم الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم، وأنكروا البعث والحساب والعذاب، وكان أحدهم سأل عن العذاب متى يقع، تهكما به، وتكذيبا له. فبعد أن ردّ الله عليهم تكذيبهم فى فاتحة هذه السورة، ووصف ما سيلاقونه من هول العذاب ولا سيما من كان منهم حريصا على جمع المال وادّخاره، وبعد أن ذكر أن هذا الحرص ناشئ عن خُلُق [الهلع] المذموم، واستثنى أصنافا من الموفقين الذين طهرهم الله من ذلك الخلق — عاد إلى أولئك المكذبين، فوصف من خلائقهم، ومن ذميم أطوارهم فقال: ﴿فما للذين كفروا قِبلك مهطعين؟﴾.

[قبلك] أى جهتك ونحوك وإلى مجلسك [مهطعين] الإهطاع الإقبال والإسراع إلى الداعى على حالةٍ خاصةٍ، وهى أن يكون ذلك المقبل المسرع مادّا عنقه شاخصا ببصره إلى من دعاه. ومن أجاب داعيه على هذه الصورة يكون فى الغالب خائفا، تبدو عليه آثار الذل والخضوع؛ فالمكذبون من قريش كانوا إذا سمعوا صوته صلى الله عليه وسلم تاليا آياتِ القرآن وفيها من الزجر والوعيد ما يزعج نفوسهم، ويصدع أعشار قلوبهم، أسرعوا إلى مجلسه منذعرين مُتْلِعين بأعناقهم نحوه، لا يلوون على شىءٍ حتى يصلوا إليه، وإذ ذاك يتفرقون حواليه ﴿عن اليمين وعن الشمال عِزين﴾:

[عِزين] أى فِرقا فِرقا، وجماعاتٍ جماعات، متحدّثين بشأنه، ومستغربين ما سمعوا منه، كأنهم فى أول الأمر يأتون وعليهم آثار الخبل والدهشة والخوف، حتى إذا اجتمعوا وتراءَوْا زالت وحشتهم، وهدأت نفوسهم، ثم أقبل بعضهم على بعض، فتحلقوا حوله صلى الله عليه وسلم حلقا هنا وهناك، يتساءلون — وهم معرضون عنه، هازءون به — ما ذا قال؟ وماذا أوحى إليه؟

و (عزين) جمع عِزَة كعِدَة على خلاف القياس؛ لأنه لا يجمع جمع سلامة بالواو والنون إلا ما كان علما لمذكر عاقل، أو وصفا لمذكرٍ عاقل. أما مثل جمع سَنة على سِنين، وعِضة على عِضين، وكُرة على كُرين، وعِزة على عِزين — فهو شاذ. و [العِزَة] العُصْبَة والجماعة. أصلها [عزو] حذفت واوها وعوّض عنها التاء. وكأنما سميت العصبة من الناس عزة لأنها تعتزى وتنتسب إلى رأىٍ خاصّ يجمع بين أفرادها. ويستعمل الناس اليوم [العِزوة] مكان [العِزَة] مع أن [العِزْوَة] اسم من الاعتزاء كالنسبة من الانتساب زنة ومعنى: يقال: إن فلانا لحسَن العِزوة.

أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

فإذا اجتمع هؤلاء المهطعون حوله صلى الله عليه وسلم مجالس مجالس ، فى كل مجلس ثلاثة ثلاثة ، أو أربعة أربعة ، وقد استأنس بعضهم ببعض — عادوا إلى استهزائهم وتكذيبهم . ويسمعون فى آيات الوحى ذكر ما أعد الله للمؤمنين يوم القيامة من النعيم وصنوف الكرامة ، فيهزون رءوسهم هازئين ، ويقول بعضهم لبعض ساخرين : " إن كان هؤلاء القوم داخلى الجنة ولا بد كما يعدهم محمد فنحن أولاء داخلوها قبلهم " يريدون أنهم أحق بها منهم ، لأنهم هم أشراف العرب وسادات قريش ، فقال تعالى مجيبا لهم : ﴿أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ؟﴾ وهذا استفهام إنكارى مشوب بالتوبيخ والتقريع ، أى لا يطمعن طامع منهم أن يدخلها يتنعم بها وهو لم يسع لها سعيها .

ثم عاد فكرر زَجْرهم ، وتفييل رأيهم بأداة الزجر الخاصة به وهى ﴿كلا !﴾ أى ما الأمر كما زعموا ، وليس طمعهم بدخول الجنة فى محله . وكأن قائلا يقول : ولماذا يارب ؟ فأجاب ﴿إنّا خلقناهم مما يعلمون﴾ والشيء الذى خلقوا منه المعلوم لهم هو تلك المُوَيْهَةُ القذرة ، فإذا كان الأمر كذلك وعلموا مِم خلقوا فما يكون لهم أن يَّدعوا تلك الدعوى من دخولهم الجنة قبل المؤمنين؛ فإن المؤمنين مثلهم فى ذلك ، فلم يبق سبيل للتفاضل بين الفريقين إلا بالتقوى والعمل الصالح ، واتباع الحق ، وهو ما عليه المؤمنون ، لا ما عليه هم من التكذيب والجحود والعناد ، فليرتدعوا إذن عن هذا الطمع الباطل فى دخول الجنة قبل غيرهم .

وإنما ردّ عليهم هذا الردّ ، وأيْأسهم من دخول الجنة بهذا الأسلوب تذكيراً لهم بأن الذى خلقهم من شيء حقير — كهذا الشيء الذى خلقوا منه — قادر على أن يخلقهم من التراب الذى تحولت أجسامهم إليه بعد الموت ، فما كان ينبغى أن يدَّعوا دخول الجنة قبل غيرهم ، بل ما كان لهم أن ينكروا البعث من أصله .

فانظر كيف جمع فى هذه الكلمات القليلة ما شاء من الاحتجاج على المكذبين ، والتعريض بهم ، وإلانة القول لهم ، مع النزاهة التامة فى التعبير ، وحسن الإيقاظ والتذكير ، ولا عجب فهو الكلام الإلهى الذى تبوّأ من البلاغة سنام الإعجاز ، وترك لغيره المآخر والأعجاز .

فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾

﴿فلا أقسم الخ﴾ يقال في هذا القسم المنفي ما قيل في قوله تعالى : (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) . وقرئ ﴿برب المشرق والمغرب﴾ بالإفراد ، أى مشرق الشمس ومغربها . أما قراءة الجمع فباعتبار أن للشمس مشارق متعددة تختلف باختلاف أيام السنة وفصولها ، كما أن لها مغارب متعددة كذلك . أو المراد مشارق الكواكب ومغاربها . وفى جملتها الشمس و(رب المشارق) هو الله سبحانه وتعالى . وضمير (منهم) يرجع إلى أولئك الذين كانوا يهطعون إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغوه تفرقوا حواليه عصائب عصائب عن اليمين وعن الشمال ، ثم يأخذون فى التهكم به و بأتباعه المؤمنين .

وقوله : ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أى إنا إذا أردنا الانتقام من هؤلاء المكذبين ، والأخذ بنواصيهم ، فلا يمكنهم أن يفلتوا منا فيسبقونا هربا ، و يفوتونا طلبا . فمعنى (ما نحن بمسبوقين) هنا كمعنى قوله تعالى خطابا لهم فى غير ما موضع (وما أنتم بمعجزين) أى ، ما أنتم بالقادرين على أن تفلتوا منا فنعجز عن الوصول إليكم ، و إنزال العذاب بكم .

يقول تعالى : لا حاجة للقسم فالأمر واضح ، إنا لفى إمكاننا أن نستبدل بكم يا معشر المكذبين المستهزئين قوما يكونون خيرا منكم استعدادا للإيمان ، وقبولا للحق ، ومسارعة إلى تصديق محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم لا تحسبوا أنكم قادرون على الهرب والافلات ، فتسبقوننا وتنجون بأنفسكم منا بحيث لا نعود قادرين على إنزال العقوبة بكم . كلا ! فكل ما توهمتموه باطل .

ثم التفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حاضًا له على الثبات والصبر ، ومتوعّدا أولئك المكذبين على ما كان منهم من الجحود والكفر ، فقال :

﴿ فذرهم ﴾ أى دعهم يا محمد ﴿ يخوضوا ﴾ فيما يعجبهم من لهو الحديث ولغو الكلام . جعل الاستكثار من الحديث الباطل ، والذهاب فيه كل مذهب خوضا على التمثيل . ﴿ ويلعبوا ﴾ يأتوا من الأعمال ، ويرتكبوا من الأمور ، ما هو لعب وهزؤ لا فائدة لهم فيه ولا نفع . ثم لايزالون كذلك فى خوضهم ولعبهم و باطلهم وغفلتهم ﴿حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون﴾ أى حتى يصلوا ويبلغوا يومهم الذى أوعدهم الله بالعذاب فيه ، و إذ ذاك يعلمون أنهم كانوا على باطل ، ورأى فايل ، وأنهم أضاعوا وقتهم ، وخسروا دنياهم وآخرتهم .

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

[يوم] بدل من يومهم فى آخر الآية السابقة . يصف من هول ذلك اليوم ، وحالة المكذبين فيه . و[الأجداث] القبور . و[نُصُب] وزان عُنُق مفرد جمعه أنصاب . وقيل إنه جمع واحدُه نصاب ككُتُب فى جمع كتاب . ومعناه على الوجهين كل ما نُصِبَ وأقيم لأجل أن يعبد من دون الله ، من صنم أو غيره . و[يوفضون] يسرعون ويَسْتَبِقُون . و[الخشوع] فى البصر الغض والكسر ، وفى الصوت الخفض والإخفات ، أما الخشوع فى البدن فهو الذل والتطامن ، و[ترهقهم] تغشاهم وتعلوهم وتستولى عليهم .

والمعنى أن أولئك المكذبين المستهزئين الذين أمر الله نبيه أن يخلّيهم وشأنهم سيلاقون يومهم الموعود عما قليل ، وفى ذلك اليوم يخرجون من قبورهم مجيبين داعيهم ، مسرعين إلى موقف العرض والحساب ، وإن حالتهم فى إسراعهم إلى ذلك المكان كحالتهم فى الدنيا مذ كانوا ينفرون من مساكنهم فى أيام أعيادهم ومواسمهم متسابقين إلى حيث نصبوا أصنامهم وآلهتهم ، أيهم يأتيها أولا ، فيعبدها ويتقرب إليها من دون الله ، وتكون أبصارهم فى ذلك اليوم مغضية منكسرة إلى الأرض ، وعلى وجوههم آثار الذلة والمهانة .

وقوله : ﴿ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون﴾ أى هذا هو اليوم الذى كانوا يوعدون به فى دار الدنيا فيمارون فيه ويكذّبون ، قد تحقّق ورأوه بأعينهم .

وفى تشبيه حالة إسراعهم إلى موقف الحساب بحالة إسراعهم وتسابقهم فى دنياهم إلى آلهتهم وطواغيتهم — تهكم بهم ، وتعريض بسخافة عقولهم ، وتسجيل عليهم بالجهل فى هذا الإسراع إلى عبادة غير من يستحق العبادة والتقاعد عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم الذى يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده .

وقرئ (كأنهم إلى نَصْبٍ يوفضون) بفتح النون وسكون الصاد مفردا ، وهو العلم المنصوب . والغاية يستبق إليها المتراهنون يوم السباق ؛ يقول : إن المكذبين يخرجون يوم القيامة مجيبين الداعى كأنهم يسرعون إلى رايةٍ رفعت لهم ، فهم يبتدرونها ويستبقون إليها ، وليس فى هذا المعنى من التوبيخ والتقريع ما فى المعنى الأول ، فيكون الأول هو الأمثل .